مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (18) العدد (11) 1996
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research – Arts and Humanities Series Vol. (18) No (11) 1996

قراءة استشراقية في منهجية السنة والسيرة

الدكتور أحمد حيدر*

☐ الملخّص ☐

تضطلع الدراسة التي بين أيدينا بمهمة إلقاء الضوء على جهود فقهاء المسلمين ومؤرخيهم في مجال تطوير منهج علمي رصين لتدوين الأحاديث الشريفة المأثورة عن النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم وكتابة سيرته وسيرة الصحابة والتابعين والأجيال التالية، الأمر الذي كان من شأنه إرساء أسس علمية وإيقاظ وعي ناشط لكتابة التاريخ عند العرب. فقد وضعت قواعد ثابتة وصارمة تشترط في ما تشترط أمانة ونزاهة جميع الرواة وتسلسلهم وفق ترتيب زمني متتابع ومطرد بإحكام. بذلك كتب البقاء للأحاديث الصحيحة وأزيلت الموضوعة أو انتزعت منها مصداقيتها.

كيف ظهرت هذه المنهجية في مرآة الاستشراق؟

* أستاذ في قسم اللغة الإنكليزية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (18) العدد (11) 1996
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research – Arts and Humanities Series Vol. (18) No (11) 1996

La lecture orientaliste de la méthode adoptee pour la transmission de la tradition et de la biographie du prophète

Dr. Ahmad HYDAR*

❐ RÉSUMÉ ❐

Notre propos dans cette étude est de jetre une certaine lumière sur les efforts des savants et historiens musulmans concernant le développement d'une méthode scientifique afin de collecter la Tradition transmise du prophète d'écrire sa biographie, et celle des ses compagnons, des ses disciples et des générations suivantes. Ce qui fit établir les fondements scientifiques et mit les arabes en conscience pour écrire l'Histoier. Ainsi, ont-ils adopté des règles aussi fixes que sériuses conditionnant et la fidélité et l'honnêteté de tous les narrateurs de la Tradition, et en même temps, leur succession selon une chaine de garants fermement régulière. et ce n'est que grâce à ce système que la Traditions et les propos corrests ont survécu et survivent encore. Alors que toutes les "forgeries" ont été éliminées au défavorisées.
Comment cette méthodologie se reflète-t-elle dans le miroir de l'Orientalisme?

* Professeur au Departement d'Anglais, Faculté des Letters et Sciences Humaines, Université de Tichrine, Lattaquié, Syrie.

لم تتوافر قط معلومات عن حياة وأعمال أي نبي آخر بالقدر الذي ذخرت به الأخبار والكتب الكثيرة التي تتحدث عن حياة وإنجازات النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم. ففي حين أن العهد الجديد من الكتاب المقدس مثلاً هو المصدر الأصلي الوحيد، الذي يروي القليل القليل عن ظروف حياة السيد المسيح عليه السلام فإننا نجد –إلى جانب القرآن الكريم– كتباً عديدة عن سنة وسيرة الرسول العربي (ص). وهذه الكتب تصف أدق تفاصيل حياته منذ ولادته وحتى مماته(1). كُتَّاب سيرته الأصلية كانوا بالطبع رجالاً من أتباعه.

ولكي نتصور كيف نشأت الآلاف المؤلفة من الأحاديث عن حياة الرسول (ص) وأعماله، فلابد من أن نستحضر في أذهاننا تلك الهالة القدسية التي أحاطه بها أولئك الذين آمنوا به وبرسالته. فمسلمو الأزمنة الأولى اقتنعوا بكل صدقٍ وتفانٍ بوجوب اتباع أوامر الله والإقتداء بأفعال رسوله (ص)، التي كمن تثمينها في الحديث الشريف القائل: "تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا إذا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله"(2). وبما أن القرآن الكريم لم يُحط بمعالجة كل الأمور القانونية والسياسية والاجتماعية وما يستجد من الأمور اليومية فقد كان قول الرسول (ص) وعمله معياراً للبت فيها جميعها(3). فعندما عيَّن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب شُريح بن هانئ قاضياً ودَّعه بقوله: "ما وجدته في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً وما لم تجده في كتاب الله فالزم السنة، فإن لم يكن في السنة فاجتهد رأيك"(4). حتى بدا أحياناً أن السنة تحظى في مجال التشريع بمكانة مساوية لمكانة القرآن. كيف لا والرسول (ص) –في نظر المؤمنين به وبرسالته– لا يتصرف إلا بإرادة ربه.

انطلاقاً من تصورات كهذه بدأ فقهاء المسلمين يهتمون بسنة الرسول (ص) وسيرته. وحتى قبل أن يتوفاه الله انشغل البعض –ولو في نطاق ضيق– بجمع أحاديثه الشريفة، وأُقيمَ وزن كبير لحفظها حرفياً وعن ظهر قلب. أما تدوينها فلم يخطر آنذاك على بال. غير أن وفاة الرسول (ص) (في عام 632 ميلادية) أدت فيما أدت إلى نضوب المنبع الأصلي للقواعد والأسس التي كانت تنظم حياة الجماعة الإسلامية. فبحث الناس عن منهل بديل لدى أصحابه وأقاربه الذين عاصروه وعاشوا معه. وبرز من بين هؤلاء رواد معلمي الحديث في المدينة مثل: أبو هريرة، أبن مسعود، وعبد الله بن عمر وغيرهم. وتدفق طلاب العلم من كل حدب وصوب إلى مساجد المدينة وبيوت الفقهاء كي يسمعوا إلى محاضرات حفاظ الحديث؛ وأبو هريرة بالذات حظي بشرف أنه كان أستاذاً لثمانمائة تلميذ. ولكي يؤخذ بحديث شريف ما –خاصة أمام المحكمة– فقد احتاج الأمر إلى شهادة شخص آخر على الأقل، عدا ناقله.

عندما اتسعت الأمبراطورية الإسلامية لتشمل أيضاً سورية وبلاد الرافدين وإثر نشوب الحرب الأهلية بين أنصار الإمام علي من جهة وأنصار عائشة ومعاوية من جهة أخرى بحجة قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (عام 35هـ) دخلت عملية انتشار الحديث الشريف مرحلة جديدة. أولاً أنشئت مراكز جديدة للفقهاء في كل من دمشق والكوفة. وثانياً شرعت كل من الفئتين المتصارعتين تستغل أحاديث الرسول (ص) ضد الأخرى لتبرر موقفها وتثبت أنها الممثل الشرعي الوحيد للجماعة الإسلامية. وإذا كانت المرحلة الأولى من الانشغال بسنة النبي (ص) قد اتسمت بحماس ورع لجمع الأحاديث الصحيحة فحسب، فقد بدا الآن بديهياً أن تبحث كل فئة في عملية الجمع هذه عن مغنم لها. وانتشرت من جراء ذلك أحاديث موضوعة عدت فيما بعد بالآلاف. وعانى فقهاء المسلمين من هذه الحقيقة الحرجة. فقد أدلى ابن أبي العوجاء قبيل إعدامه (عام 155هـ) في الكوفة باعتراف مثير قال فيه: "والله لقد وضعتُ أربعة آلاف حديث حللتُ فيها الحرام وحرمتُ فيها الحلال. والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم"(5).

هنا لابد من وضع المأثور المنقول على محك مناهج نقدية صارمة من أجل فرز الأحاديث الصحيحة عن الموضوعة. فنشأت معايير جديدة. الحديث الشريف قسمان: نص قصير يسمى "المتن" وسلسلة من الرواة تسمى "الإسناد". الإسناد هو بطبيعة الحال الموضوع الرئيس الذي تتناوله الدراسة النقدية المتفحصة. ومن شأن المثال التالي، الذي نورده هنا من صحيح البخارى، أن يوضح المراحل التي تمر بها الدراسة وأن يبرهن في الوقت نفسه على شمولية المواضيع التي تطرقت إليها الأحاديث النبوية الشريفة. يقول البخاري في الحديث رقم 60: "حدثنا قتيبة عن إسماعيل بن جعفر بن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي! فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله ابن عمر: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت. ثم قالوا ما هي يا رسول الله، قال: هي النخلة(6). صحيح أن موضوع هذا الحديث الشريف يبدو قليل الأهمية، إلا أنه يدل على حقيقة أن كل ما صدر عن النبي (ص) من قول هو بالنسبة لأتباعه جدير بأن يُحافَظ عليه ويُنقل ويُتوارث، أما الإسناد فيعدد هنا سلسلة متواصلة من الرواة المعروفين بدءاً من البخاري وانتهاءً بعبد الله ابن عمر الذي سمع الحديث شخصياً من الرسول ذاته (ص). وفي هذا الحديث ليس عبد الله وحده هو الذي عُرف بالأمانة والنزاهة في نقل الأحاديث الشريفة، بل عُرف بذلك أيضاً كل الرواة الذين كونوا هذا الإسناد. وتبعاً لذلك فإن هذا الحديث حديث صحيح. أما إذا أغفل ذكر سند ما، كان الحديث مقطوعاً، وإذا غاب السند الأول -رجلاً أو امرأة وفي أغلب الحالات عائشة- اعتُبر الحديثُ مُرسلاً. على أن عيوباً كثيرة أخرى نجمت عن دراسة سير الرواة واستقصاء درجات أمانتهم ونزاهتهم، وطبقاً لذلك يمكن أن يكون حديث ما ضعيفاً أو غير موثوق أو مشكوكاً به وهلم جرا(7).

إن أول رواد المنهج النقدي في الحديث هو مالك بن أنس (90-197هـ) إمام المذهب المالكي وأحد كبار معلمي الحديث في المدينة. فقد جمع مالك ألفاً وسبعمائة حديث، مرتبة حسب مضامينها في موسوعة أسماها "الموطأ" واستهدف من ذلك قطع دابر الأحاديث الموضوعة. ثم جاء بعده الإمامان: البخاري (المتوفى عام 256هـ) ومسلم (المتوفى عام 267هـ) فتابعا عمله ووصلا به إلى درجة عالية من الإتقان والكمال. هؤلاء قضوا على كل حديث لم يقوَ على الصمود في وجه المعايير النقدية العلمية التي أوجدوها. وتوصل علم الحديث بفضلهم إلى وضع قواعد وأسس ثابتة وبلغ ذروة من التبلور والتقدم. فلم ينجب التاريخ العربي الإسلامي من استطاع بعدهم مجاراة ما أبدعوه في هذا المجال.

ونظراً للفيض الجارف من الأحاديث الشريفة التي انتشرت إبان الحرب الأهلية وبعدها فإن جُمَّاع الحديث لم يستطعوا بعد ذلك أن يعتمدوا على الذاكرة وحدها. منذ بداية القرن الثاني للهجرة اعتاد بالتدريج المعلمون والمتعلمون على حد سواء على تدوين الأحاديث وحفظها في دفاتر. عند نهاية القرن أصبح ذلك أمراً مألوفاً وعاماً. تلك الدفاتر هي التي شكلت في ما بعد أسس ومراجع كتب السنة العديدة والشاملة.

إلى جانب السنة وفي نفس الأزمنة والأمكنة تطورت أيضاً سيرة الرسول (ص). هذه السيرة تشتمل على عناصر مختلفة، تاريخية وروائية. فقد نجد فيها وثائق تاريخية واتفاقيات ورسائل كما نجد فيها روايات خيالية ومعاجز. وقد شكلت غزوات الرسول (ص) شكلت بالنسبة لجميع كُتَّاب السيرة المحور الرئيس للعرض التاريخي. عروة ابن الزبير (المتوفى عام 94هـ) كان أول من جمع في حوالي منتصف القرن الأول الهجري أخباراً عن المراحل المختلفة في حياة الرسول (ص) لغاية تراجمية الطابع. إذ أن قرابته من عائشة (خالته) مكنته من معرفة الكثير عن حياة الرسول (ص) العائلية الخاصة. وشرحبيل (المتوفى عام 123هـ) اكتفى بنقل أخبار الغزوات. أما الزهري (المتوفى عام 125هـ) فقد صب اهتمامه على دراسة سلالة ونسب

النبي (ص). وكان من أمر هؤلاء الرجال وآخرين غيرهم أن أغدقوا ما توصلوا إليه من أبحاث على طالبي العلم في مساجد المدينة. بالطبع لم تصل إلينا ثمار جهودهم ودراساتهم إلا في الكتب التي نشرت فيما بعد من قبل تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم. إذ لم يكن الوقت آنذاك قد حان بعد لنشر سيرة متكاملة.

إن أقدم سيرة كاملة ومرتبة ترتيباً زمنياً متتابعاً ودقيقاً وصلت إلينا عن حياة وأعمال النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم هي حصيلة جهود المؤرخ العربي محمد بن اسحاق (المتوفى عام 151 أو 153هـ)، وكان قد كلفه بإعداد تلك السيرة الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، إلا أن مخطوطاتها الأصلية لم تعد موجودة. والسيرة ذاتها لم تصلنا إلا بالشكل الذي صاغه المؤرخ عبد الملك بن هشام. ويعود الفضل في إطلاع ابن هشام على المخطوطات الأصلية إلى تلميذ ابن اسحق المباشر، زياد بن عبد الله البكائي. هذه السيرة -إذا صرفنا النظر عن القرآن الكريم والشعر العربي القديم- هي أقدم آثار الأدب العربي قاطبة(8). بديهي إذن أن يستقي منها معظم كُتّاب السير الذين أتوا فيما بعد. لكن على الرغم من الصيت الذائع الذي تمتع به ابن اسحاق بين فقهاء عصره فهو لم ينجُ من النقد اللاذع والتشهير الجارح(9). والتهم التي وجهت إليه تركزت بالدرجة الأولى على إخلاله بقواعد الإسناد: فقد يهمل أحياناً ذكر مصادر حديث ما أو يتجاهل مبدأ التسلسل في سرد الرواة. وعندما يعجز عن إيجاد مخرج من مأزق يستعين -بدلاً من أن يذكر أسماء- بتلميحات فحسب، مثل: "أحد الناس..." أو "أحد الرجال..." أو "واحد ممن أثق بهم روى لي..."(10). وتؤخذ عليه من جهة أخرى آراؤه الشيعية والقدرية التي تؤكد على الإرادة الحرة عند الإنسان. إلا أن هذه التهم برهنت فيما بعد على أنها قليلة الشأن ولا يعتد بها. أولاً لان الموقف المتزمت ضد ابن إسحاق الشيعي هو موقف أحادي الجانب ضد شخصه، لكنه لا يضير نزاهة وصدق ابن إسحاق المؤرخ في شيء. وثانياً لأن الاتجاهات والمناهج النقدية المتعلقة بالإسناد لم تكن في عصره قد وصلت بعد إلى شكلها النهائي الثابت من القواعد العلمية الصارمة. من جهة أخرى تعالت هنا وهناك أصوات فقهاء تدين لابن إسحاق بالاعتراف والتقدير. يقول ابن عدي: "لمحمد بن إسحاق حديث كثير وقد روى عن أئمة الناس. ولو لم يكن له من الفضل غير أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء إلى الاشتغال بمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه ومبدأ الخلق، لكانت هذه فضيلة لم يسبقه إليها أحد. وقد صنفها بعده قوم فلم يبلغوا مبلغه. وقد فتشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف. وربما أخطأ أو يهم في الشيء بعد الشيء كما يخطئ غيره. وهو لا بأس به... روى له مسلم في المتابعات وعلق عليه البخاري"(11).

أما إنجاز ابن هشام في إعداد وإخراج كتاب ابن إسحاق عن السيرة النبوية فقد اقتصر فيما اقتصر على إضافة بعض الإيضاحات إلى مواضيع سادها الغموض وإيجاز أو حذف بعض الأشعارْ التي لم تعد آنذاك واسعة الانتشار. وكانت السيرة التالية من تأليف الفقيه العربي الشهير الواقدي (المتوفى عام 97هـ). فقد قام الواقدي في بغداد بدراسات عن نسب الرسول (ص) وغزواته ونسائه ورسالته وأغنى الكتب التي كانت متوافرة حتى ذلك الحين بأدلة وحجج جديدة كما أنجز خطوة أخرى هامة في منهجية علوم السيرة النبوية عن طريق ما عرف بـ"الاستخراج"(12). في ما بعد قام تلميذه وسكرتيره ابن سعد (المتوفى عام 230هـ) بإعادة النظر في أبحاث أستاذه ونشرها في خمسة عشر جزءاً تحت عنوان "كتاب الطبقات الكبير" الذي ضمنه -وفقاً لتسلسل زماني ومكاني دقيق وفي طبقات- سيرة الرسول (ص) والأصحاب والتابعين والأجيال التالية من الفقهاء والقادة المسلمين ورجال آخرين من ذوي الشهرة والفضل وذلك حتى عام 230 هجرية. إن اسم "طبقات" الذي اعتبر عنواناً للكتاب هو تعبير عن رؤية شاملة لمجمل مضمونه. وتكمن جذور هذا النوع من التسميات -التي تطلق في العادة على مؤلفات تاريخية- في مسيرة عملية تطور علم الحديث.

فقد رأينا كيف أن الإسناد (حرفياً: دعامة، متكأ) هو الموضوع الرئيس الذي تتناوله المعايير النقدية للحديث. بدون دعامة ثابتة لا يمكن بالطبع أن تقوم لحديث قائمة. وهذه الدعامة تتطلب استمرارية وتسلسلاً زمنياً دقيقاً، لذلك أعدت منذ القرن الثاني للهجرة قوائم بأسماء الرواة الثقاة، مرتبة حسب التسلسل الزمني، وأخذت هذه القوائم تنمو باضطراد إلى أن تطورت كل واحدة منها إلى كتاب أطلق عليه اسم "تاريخ"، عملية فرز الأسماء التي في هذه التواريخ بتسلسل مضطرد بتقدم الزمن إلى أجيال متشابهة زمناً ونوعاً وفصل الجيل الأسبق بصفته حاملاً للثقافة والبحث التاريخي عن الجيل الذي يليه ويحل محله – هذه العملية تنجز بالطبع تصنيف هذه الأجيال في "طبقات".

هنا نعيش بداية عصر جديد من البحث التاريخي في الحضارة الإسلامية. إذ لم يعد التاريخ لدى ابن سعد –كما كان الحال بالنسبة لابن إسحاق وأسلافه– مقتصراً على عرض تفاصيل حياة النبي (ص) وأحداث عصره. صحيح أن محمداً (ص) ظل يشكل في هذه المرحلة الجديدة أيضاً مركز الثقل في فعاليات البحث التاريخي، إلا أنه لم يعد الموضوع الوحيد في مجال كتابة التاريخ. وفيما بعد –يعني في كتب ابن قتيبة والطبري وابن الأثير وأبي الفداء وغيرهم– لا تحتل سيرة الرسول (ص) سوى جزء من تاريخ العالم.

في الحقيقة لم يستيقظ وعي العرب للبحث التاريخي إلا من جراء انشغالهم بسيرة الرسول (ص). لا بل استيقظ بذلك وعيهم لكل مجالات العلوم الأخرى التي ازدهرت في العصر العباسي(13). فإلى محمد (ص) يعود الفضل في قلب المجتمع العربي وتفتيق طاقاته من جديد وتأسيس إمبراطورية عربية إسلامية على مستوى عالمي في غضون بضعة عقود من الزمن. ولولاه لما استطاع أبناء الصحراء في فترة زمنية ممكنة التحديد تجاوز الحواجز الضيقة، المحيطة بالحياة القبلية التي اتسمت فيما اتسمت بالمبالغة الدقيقة في صون الكرامة وبالإصرار على الثأر والانتقام. ولذلك يمكن تفهم الأثر المنقطع النظير الذي خلفته منجزاته في نفس اتباعه كما يمكن تبرير رأي الإمام الشافعي حين يقول: "تجوز المبالغة في الأحاديث التي تمجد النبي"(14).

إذا أمعنا النظر في الدقة والعناية التامتين، اللتين رافقتا علوم السنة، كيف خضع الإسناد إلى قواعد صارمة وثابتة وكيف هيمنت العقلية النقدية منذ البداية على جُمَّاع الحديث وحفّاظه –فلا يمكننا بعدئذٍ أن ننكر على ما نُقل من أخبار نزاهتها وأمانتها لمجرد أنها زخرفت في بعض الأحيان بقصص تحكي عن كرامات ومعاجز نبوية بقصد التربية والتشويق. كما لا يمكننا أن ننكر على فقهاء المسلمين تطوير منهج نقدي موضوعي في البحث التاريخي. فقد انشغلوا طيلة قرون ثلاثة من الزمن بهذا العلم، الذي أصبح فيما بعد أباً لجميع العلوم ومنطلقاً لها في الدولة الإسلامية. وثمة أمثلة كثيرة تشير إلى أن الفقهاء الشباب لم يعترفوا بأعمال سلفهم ببساطة ويسر ورفضوا الأخذ بها على علاتها. فقد رأينا آنفاً كيف تعرض مؤلف أول سيرة نبوية وصلت إلينا، ابن إسحاق، لانتقادات لاذعة. وذكر الشافعي أن ما كتبه الواقدي في هذا المجال ينطوي على كذب وافتراء ورأى أن ذلك ينطبق أيضاً على ابن إسحاق وخاصة في أول كتابه. بالمقابل أثنى الشافعي على ابن عقبة إذ لم يجد في ما يتعلق بسيرة الرسول (ص) والتأريخ لها أصدق من كتابه(15).

ثمة مستشرقون يعترفون بمنهج السنة النبوية والبحث التاريخي عند فقهاء العرب المسلمين ويقدرونه حق قدره. إدوارد ساخاو على سبيل المثال يثمن إنجازات القرون الأولى في هذا المجال بقوله: "... أعمال تحضيرية قيمة على صعيد النقد التاريخي لم أعرف لها مثيلاً في أي أدب آخر في الأزمنة القديمة أو العصور الوسطى"(16). في حين يرى أوتو لوط أن الاتجاهات النقدية في السنة ناقصة وسطحية، إلا أنه يعترف في الوقت ذاته بأنها "... الطريقة الوحيدة التي تسنت للمسلمين آنذاك وعلى المرء أن يقر بأنها أنجزت –ضمن الحدود المرسومة لها– أقصى ما يمكن إنجازه"(17). ويستهوي لوط بشكل خاص ذلك التجديد التاريخي الذي

تم على يدي ابن سعد: "لقد تحررت طبقات ابن سعد من عملية نقل نصف تيولوجية، فهي تتلامس مع التاريخ الدنيوي وخاصة ما يتعلق منها ببحث الأسباب... لا نستطيع أن نقدر له هذه الخطوة، التي هي في نظر رفاقه ومعاصريه زندقة والحاد، حق قدرها"(18). وفي اتجاه مشابه يحس تيودور نولديكي أنه مدين لابن إسحاق بشيء من الإطراء، إذ يقول: "فإذا كان خص بالذكر في كتابه أقوال أولئك الذين هاجموا الرسول ونشروا عنه الإشاعات السامة، فذلك ما يبرهن عن نزاهة عجيبة(19). أما ألويس شبرينغر فيستحسن المنهجية التي تم بموجبها نقل السنة النبوية، لكنه يستهجن نقل السيرة. وفي رأيه أن السنة تحتوي صحة أكثر مما تحتوي خطأ، في حين أن السيرة على عكس ذلك تماماً. وبما أن الصياغات المتعددة لحديث واحد من شأنها أن تتيح خيارات نقدية فهو يعتبر السنة -بعد القرآن والوثائق الخطية- المنهل الأنزه والأمثل. وطالما أن شبرينغر يصر على رفض نبوة محمد (ص) فهو يبدي امتعاضاً من حقيقة أن كتب السيرة التقطت الخوارق والمعاجز التي شاعت عن الرسول محمد (ص) بعد موته. إلا أنه يسهم في الوقت ذاته في التخفيف من قسوة حكمه حين يعتبر أن تلك القصص المخترعة ليست وليدة كذب متعمد، بل هي مجرد "إبداع خيال لاه يتحرك بإيمان حي حول مثل النبوة الأعلى..."(20) ويرى شبرينغر أيضاً أن قواعد النقد التاريخي التي أوجدها المسلمون هي إجمالاً معقولة في ملامحها الأساسية وأن الإسلام هو الدين العالمي الوحيد الذي تتوافر حول نشوئه أخبار صادقة. لكنه يأسف بالمقابل لحقيقة أنه لم يؤثر عن محمد (ص) سوى ما نقل أتباعه عنه.

هذا النموذج لرؤية استشراقية منصفة في خطوطها العريضة هو نتيجة لعاملين أساسيين أولهما تأثير المد التنويري الهائل الذي اجتاح أوروبا منذ القرن الثامن عشر وكانت جذوره قد تأصلت قبل ذلك بمائتي عام في انبثاق عصر النهضة وتفجر الإصلاح الديني. وثانيهما هو ما نجم عن أولهما من ازدهار الحركة الاستشراقية التي وضعت نصب عينيها هذه المرة التعرف على الحضارة العربية الإسلامية من خلال دراسة مباشرة لمصادرها التاريخية الأصلية وذلك بحثاً عن إجابة على السؤال المحيِّر: هل الجارة الغريمة، الأمة العربية، جديرة حضارياً باعترافنا؟ لكن هل بمقدور هذا الواحد المشرق من وجهي الميدالية أن يزيل من الوجود الوجه الآخر، الذي تشكل في ظلام العصور الوسطى وفي ظلال العنفوان الصليبي فلم يعتمد المصادر التاريخية مرجعاً له، بل فضل التزييف والتشويه والعبث بالتاريخ وحقائقه حيث لم تخطر له فكرة الاعتراف على بال؟ -ليس ثمة ميدالية بوجه واحد.

الحواشي

(1)- مثلاً: كيف اعتاد أن يمشي، أن يأكل ويشرب، أن يمشط شعره وهلم جرا. ما كان يفضل من أحذية وملابس وعطور وخيول؛ حتى أنه ورد ذكر الآبار التي شرب منها. لمزيد من التفاصيل راجع: ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، إصدار أدوارد ساخاو، لايدن 1917 ص184-87.

(2)- مالك بن أنس، الموطأ، إصدار م.ف. عبد الباقي، القاهرة 1915 ص899.

(3)- يضيق المجال هنا لعرض الجدل الذي أثاره مؤخراً يوزف شاخت (أصول التشريع المحمدي، أوكسفورد 1950) حول دور الحديث وأمانته التاريخية. لكن من الثابت قطعاً أن السنة لعبت منذ نهاية القرن الثامن الميلادي دوراً رئيساً في التشريع وكتابة التاريخ كما في كل مجالات الحياة الإسلامية.

(4)- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، إصدار م. مسعود، القاهرة 1323هـ، الجزء السادس عشر ص36.

(5)- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة بيروت 1965، الجزء السادس ص7.

(6)- صحيح البخاري، طبعة القاهرة 1311هـ، الجزء الأول ص24.

(7)- لدى قراءة حديث شريف ما يصطدم القارئ في أغلب الأحيان بأسماء كثيرة مجهولة يعددها الإسناد وقد ينفذ صبره قبل أن يصل إلى متن الحديث. النووي يميز بين خمسة وستين نوعاً من أنواع الحديث، كل حسب صلته بالمعايير النقدية التي أوجدتها علوم السنة. (انظر صحيح البخاري بشرح الكرماني، القاهرة 1937، الجزء الأول ص48-1).

(8)- سيرة ابن هشام، إعداد فرديناند فوستنفلد من مخطوطات برلين ولايبزيغ وغوتا ولايدن، الجزء الثاني، غوتنغن 1860 ص37.

(9)- قارن تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، طبعة بيروت 1968، الجزء التاسع ص38-46.

(10)- سيرة ابن هشام، المرجع السابق، الجزء الثاني ص20-23.

(11)- تهذيب التهذيب، المرجع السابق، الجزء التاسع ص44 وما يتبع.

(12)- الاستخراج هو البحث عن عدة مجموعات من رواة حديث أو خبر واحد، يعني البحث عن أكثر من سلسلة واحدة من الرواة.

(13)- قارن: ألفريد فون كريمر، تاريخ الشرق الحضاري في ظل الخلفاء، طبعة جديدة، هيلدسهايم 1966، الجزء الثاني ص396-484.

(14)- تم الاقتباس عن ألويس شبرينغر، حياة محمد وتعاليمه، الطبعة الثانية، الجزء الثالث برلين 1869 ص56.

(15)- انظر شبرينغر، المرجع الآنف الذكر، الجزء الثالث ص67.

(16)- انظر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بولاق 1854 الجزء الثاني ص346.

(17)- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، المرجع السابق الذكر، الجزء الثالث ص18.

(18)- أوتو لوط، أصل ومعنى الطبقات...، في: مجلة الجمعية الألمانية الشرقية، الجزء الثالث والعشرون، لايبزيغ 1869 ص613.

(19)- تيودور نولديكي، قصة القرآن، إعداد فريتس شفولي 1919 الجوزء الثاني ص 132.

(20)- شبرينغر، حياة محمد وأعماله، المرجع السابق الجزء الثالث ص61 وص104.

REFERENCES المراجع

1- المراجع العربية:

- ابن سعد، 40-1904 كتاب الطبقات الكبير، إصدار أدوارد ساخاو 8 أجزاء، لايدن.
- تاريخ الطبري 1960 إصدار محمد أبو الفضل إبراهيم 10 أجزاء، القاهرة.
- ابن أنس مالك 1951 الموطأ، إصدار م.ف الباقي، القاهرة.
- الاصفهاني أبو الفرج، 1323هـ الأغاني، إصدار م.مسعود القاهرة 21 مجلداً.
- ابن الأثير، 1965 الكامل في التاريخ، طبعة بيروت 13 جزءاً.
- صحيح البخاري، 1311هـ، طبعة القاهرة.
- سيرة ابن هشام، 1960، إعداد فرديناند فوستنفلد من مخطوطات برلين ولايبزيغ وغوتا ولايدن، جزآن، غوتنغن.
- ابن حجر العسقلاني، 1968 تهذيب التهذيب 12 جزءاً دار صادر بيروت.
- المقريزي، 1954 كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جزآن، بولاق.
- البلاذري، 1959 انساب الأشراف، إصدار محمد حميد الله، القاهرة.
- صحيح مسلم، 8 أجزاء، طبعة القاهرة دون ذكر عام النشر.

2- المراجع الأجنبية:

- Enzyklopaedie des Islam, 4 Bde. Leiden und Leipzig 1913-1936.
- Becker, C.H. 1907, Christentum und Islam, Tuebingen.
- Fueck, Johann 1955, Die arabischen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts, Leipizg.
- Goldziher, Ignaz 1961, Muhammedanische Studien. 2 Bade. Hildesheim.
- Goldziher, Ignaz 1925, Vorlesungen ueber den Islam, Heidelberg.
- Keller, Adolf 1896, Der Geisteskampf des Christentums gegen den Islam bis zur Zeit der Kreuzzuege, Leipzig.
- Kennedy, P. 1926 Arabian society at the time of Muhammad, Calcutta.
- Kremer, Alfred von 1966, Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen, 2 Bade. Hildesheim.
- Loth, Otto 1969, Ursprung und Bedeutung der Tabakat. In: ZDMG, Bd. 23 Leipzig.
- Munro, D.C. 1931, The Western Attitude towards Islam during the period of the Crusades. In: Speculum VI.
- Noeldeke, Theodor 1863, Das Leben Muhammeds nach den Quellen populaer dargestellt, Hannover.
- Prutz, Hans 1878. Christentum und Islam im Mittelalter, Historisches Buch 5. Folge.
- Prutz, Hans 1946 Kulturgeschichte der Kreuzzuege, Hildesheim
- Sprenger, Alois 1869 Das Leben und die Lehre des Mohammad, 3 Bde. 2. Ausgabe, Berlin.
- Wuestenfeld, Ferdinand 1882, Die Geschichtsschreiber der Araber, Goettingen.